المحور الثالث

أهم الممالك التي ظهرت في إفريقيا جنوب الصحراء:

أولا: مملكة غانة:

إن الشيء الذي يجب أن يعرفه الدارس لهذه المملكة هو أن غانة المقصودة بهذا الموضوع ليست هي غانة الحالية و التي كانت تعرف بساحل الذهب و لا تمت إليها بأي صلة، و أن غانة هذه هي مملكة قديمة قامت في السودان الغربي جنوب موريتانيا الحالية منذ القرن الثالث للميلاد ، و هي أقدم مملكة في السودان الغربي كتبت عنها المصادر، ولقد عُرِفت عند الرحالة و الجغرافيين و المؤرخين العرب ببلاد التبر أو بلاد الذهب لما كانت تحتويه أراضيها الجنوبية من ذهب فاق كل تصور، بل هو سبب تطورها الأساسي، فلقد ذكرها ياقوت الحموي في معجمه ضمن حرف التاء و الباء و سمَّاها ببلاد التبر، حيث قال عنها: « بلاد من بلاد السودان تعرف ببلاد التبر و إليها يعرف التبر الخالص، و هي في جنوب المغرب تسافر التجار من سجلماسة إلى مدينة في حدود السودان يقال لها غانة» وتذكرها المصادر الأجنبية بمملكة واغادو(*wagadou*) نسبة إلى أسطورة الثعبان المقدس واغادو بيدا (*wagadou Bida*).

1. فترة حكم البيضان:

يعود التأسيس الأول لهذه المملكة إلى عناصر بيضاء بربرية على ما يبدو، حيث استقرت هذه العناصر البيضاء حوالي سنة 512 م في منطقة الأوكار، و بعد خمسين سنة التحقت بهم جماعة أخرى من البيضان قادمة من منطقة توات، و حوالي سنة 922 م تمكن هؤلاء البيضان من فرض سيطرتهم على الشعب السوننكي المحليين و استولوا على الحكم في مملكة غانة، و قد تداول على عرش غانة من البيضان حسب السعدي ملكا من سنة702 إلى 922 م، و في القرن الثامن للميلاد قام احد الملوك البيض في غانة بقتل احد السوننكي يدعى بنتيغي دوكوري (*Bentigui Doukouré*) لأسباب تافهة، وكان بنتيغي هذا الخادم المفضل لزعيم العائلة التي كانت تحكم غانة قبل استيلاء البيض على الحكم .و الذي كان في عهد الحكام البيض يشغل منصب وزير أول .لهذا قامت أرملة بنتيغي المقتول و التي كانت حامل آنذاك إإلى اللجوء إلى بيت الوزير الأول السوننكي ووضعت ابنها في

بيته حتى تبعده عن انتقام الملك، و قام الوزير إخفاء هذا الولد في غابة قرية بعيدة عن القصر،و عندما كبر الطفل و أصبح رجلا أخبره الوزير بقصته فقام ابن بنتيغي بالتوجه إلى القصر و قتل الملك الأبيض و استولى على الحكم مدعوما بالسوننكي وبالتالي أنهى حكم البيضان في غانة.

2. فترة حكم السوننكي:

خلال الفترة التي قتل فيها آخر ملك من البيضان على يد ابن بنتيغي حوالي سنة712 م حدث الافتراق الكبير للسوننكي في واغادو، و هنا قام ملك واغادو في ذلك الوقت و هو كاياماغان بالتوجه مع عدد كبير من شعبه الى الأوكر و أطاح بابن بنتيغي و أصبح امبراطورا للمملكة غانة رغم تعرضه لمقاومة البيض لكن دون جدوى.

لقد سيطر كاياماغان على غانة و اصبح اقوى ملك في السودان الغربي حسب شهادة ابن خلدون، حيث وسع مملكته غربا الى غاية المحيط الأطلسي .و أصبح الحكم تتداوله أسرة سيسي التي تنحدر من سلالة كاياماغان و أصحت مملكتهم تمتد الى غاية منطقة الساحل شمالا و الى غاية نهر النيجر شرقا و جنوبا إلى غاية منطقة التكرور، و إلى مناطق وجود الذهب في بلاد الونغارا، و كذا أرض اللملم من الكفار المهملين لكنها في نفس الوقت كانت في صراع دائم مع قبائل لمتونة الصنهاجية بزعامة تيلوتان و ابنه من بعده، و هذا من اجل السيطرة على مدينة اودغست التجارية، التي سيطرت عليها لمتونة لمدة من الزمن قبل ان يعيدها السود الغانيون سنة 112 م.

3.المظاهر الحضارية لغانة:

كانت مملكة غانة تمثل أروع الأمثلة في التسامح مع الديانات و الأجناس ألأخرى فيذكر البكري بان العاصمة الغانية كانت تتألف من مدينتين واحدة يسكنها المسلمين و بها 12 مسجدا و الراتبون و والمؤذنون ومدينة الملك و المعروفة بالغابة لأنها محاطة بالأشجار، هي أكثر اتساعا من الأولى وموجودة على بعد ستة أميال من المدينة الأولى ويسكنها الكفار و بها الكهنة الوثنيين و دكاكيرهم (أي أصنامهم)، كما يوجد بها سحرتهم وقبور الملوك، والسجون الملكية المختبئة وراء الأشجار في الغابة لكي لا يعرفها أي أحد. و بها مسجدا للمسلمين الذين يفدون على الملك،و كان الملك يتخذ الكتاب و الوزراء و القضاة و المترجم

و صاحب بيت المال من المسلمين لثقته بهم. و بهذا يمكن أن نقول بان مملكة غانة كانت لها عاصمتان الأولى سياسية و فيها مقر الملك و الوزراء، و الثانية (عاصمة تجارية) يقصدها التجار المسلمين و كان الملك عندهم رغم استبداده و احتكاره لجميع الصلاحيات إلا انه كان حسبما ذكره البكري حسن السيرة و عادلا و محبا للمسلمين حيث يقول البكري : « ... و اسم ملكهم اليوم وهي سنة ستين و أربعمائة تنكامين، و ولي سنة خمس و خمسين، و كان اسم ملكه قبله بسي و وليهم وهو ابن خمس و ثمانين سنة و كان محمود السيرة محبا للعدل مؤثرا للمسلمين » .

و كان الملك عندهم ي ورث ابن أخته و ليس ابنه أو ابن أخيه حيث كان السودان يشكون في نسبة أبنائهم إليهم بينما لا يشكون في صحة نسبة ابن أختهم حسبما قاله البكري لذلك نجد أن الملك(مين) والملقب بتونكامين(أي الملك مين) هو ابن أخت الملك بسي الذي سبقه و هو الذي خلفه على العرش.

و كان ملك غانة خلال القرن الحادي عشر قبيل غزو المرابطين قوي شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان قادرا على تجنيد مائتي ألف جندي منهم أربعون ألف من الرماة، كما كان جيشه يملك كتيبة من الفرسان.

أما مساكن الغانيين فكانت مصنوعة من الحجارة، وهي المدينة الوحيدة من مدن السودان التي ذكرها العرب بأنها مصنوعة من الحجارة و شجر الصمغ، فقصر الإمبراطور كان مكون من سور تحيط به من كل جانب أكواخ مصنوعة من الطين و ذات سقف مخروطي مصنوع من القش، و كل ذلك محاط بسور، وبالقرب من المحكمة الملكية وجد هناك مسجد للمسلمين الذين يزورون الملك كما يذكر الادريسي بأن قصر الملك في غانة الذي بني بعد ذلك خلالسنة510 للهجرة/1116 ميلادية، أي بعد الفتح المرابطي لغانة، كان واثق البنيان محكم الإتقان، و زينت مساكنه بضروب من النقوش و الأدهان(أي الصباغة) و شمسيات الزجاج ، و كان الملك و ابن اخته ولي عهده هما فقط من يلبسان المخيط من الثياب، بينما يلتحف بقية الناس بملاحف القطن أو الحرير كل حسب قدرته .و كان النساء في غانة يحلقن رؤوسهن أما فيما يخص القضاء فكان يتولاه الملك، حيث كان الملك يجلس على قبة أمام الناس و تحيط به عشرة خيول يلبسونها الذهب، و وراءه يوجد حوالي عشرة غلمان

يحملون في أيديهم الدرق والسيوف المصبوغة بالذهب .كما يجلس أمامه على الأرض والي المدينة و الوزراء يحيطون به، و إذا دق الطبل أذن للناس بان يجتمعوا،بينما يجثو اهل دينه من الوثنيين على ركبهم و نثروا التراب على رؤوسهم كتحية للملك ، بينما يكتفي المسلمين بالتصفيق.

و مما يذكره الإدريسي عن عدل ملك غانة انه كان يمشي في أزقة العاصمة و يدور بين أزقتها ويتبعه قادة جيشه، يتفقد أحوال الناس ، فمن كانت له مظلمة أو شكوى يقف بين يديه و يسمعه حتى يقضي مظلمته ثم يرجع إلى قصره و يتفرق قادته، ثم يعود بعد الظهر عندما تخف درجة الحرارة ليقوم بنفس الجولة مع قادته ليستمع بنفسه لشكاوي الناس، حيث كان يقوم بهاتين الجولتين كل يوم لتحقيق العدل.

و في المجال الاقتصادي فقد كانت التجارة هي شريان الحياة في غانة بسبب سيطرتها على مناجم الذهب في غيارو و بامبوك و ونغارا ، و كذا سيطرتها على الطرق التجارية المؤدية الى مناجم الذهب و الذهب .حيث كانت غانة تفتقد إلى الملح الضروري للحياة، فتستورده من الشمال و خاصة من منطقة تاغزة.

كما يذكر ابن حوقل بان ملك غانة كان يهادي ملك اودغست خلال القرن العاشر بسبب حاجته الماسة للملح الموجود في بلده و الخارج إليهم من ديار الإسلام. كما كان يجلب الملح من جزيرة أوليل أو في جنوب تافيلالت بالمغرب الأقصى، أما الذهب فكان يجلب من المناطق الجنوبية مثل ونغارا في الجنوب أو من غادياروأو غاديارا، و هي مدينة واقعة على بعد ثمانية عشرة يوما من عاصمة غانة، و هي عبارة عن سوق للتبادل، بينما الذهب فلا يجلب إلا من مناطق جبلية جنوبية تقع على الضفة اليسرى من نهر السنغال الأعلى ويقول ابن الفقيه بأن« بلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتا في الرمل كما ينبت الجزر، ويقطف عند بزوغ الشمس» .

و كانت عملية مقايضة الذهب بالملح تتم وفق طرق و قوانين معلومة، فكانت تقوم هذه العملية على مساحة كبيرة على شاطئ نهر السنغال و يضع كل تاجر بضاعته في كومة خاصة به، و كان ملك غانة يفرض ضريبة دينار من الذهب على كل حمل حمار واحد من الملح على الملح الداخل إلى بلاده، و يفرض ضريبة ديناران ذهب على كل حمل حمار من

الملح الخارج من بلاده .كما يفرض على حمل حمار واحد من النحاس خمس مثاقيل من الذهب، أما الضريبة المفروضة على بقية السلع فهي عشرة مثاقيل من الذهب. و كان الملك يحتكر لنفسه حتى لا يكثر بين أيدي الناس و تقل قيمته، لكنه بالمقابل كان يترك للناس الذهب المسحوق المعروف بالتبر.

وفي المقابل كانوا يحملون معهم اللؤلؤ الأزرق، بالإضافة إلى حلقات الأذن و خواتم مصنوعة من النحاس الأحمر كما كانوا يحملون منها الجمال .

4. سقوط و نهاية إمبراطورية غانة:

رغم محاولة بعض الروايات الأسطورية إلى إيعاز نهاية مملكة غانة إلى لعنة الثعبان المقدس المعروف بواغادو و يرجعها من بعض المؤرخين الغربيين إلى الغزو المرابطي .إلا أننا نرى بأن تراجع غانة وانحطاطها يعود إلى مجموعة من العوامل أهمها:

أولا :انتشار الهجرة إلى خارج غانة، وخاصة بالنسبة للسكان الوثنيين الرافضين للإسلام والذين عندما اقتنعوا بعدم جدوى الثورة ومقاومة المرابطين فضلوا الهجرة، وكانت هجرتهم نحو الضفة اليسرى لنهر النيجر، و ذلك بحثا عن أراض أكثر خصوبة وحرية.

ثانيا :انتشار الفوضى داخل مملكة غانة، إذ بمجرد انهيار المرابطين واستعادة غانة استقلالها حتى عادت الروح القبلية والشقاق، وخاصة في ظل قلة الولاء لأسرة السوننكي الحاكمة، وانتشار الفوضى وقطاع الطرق، الذين أصبحوا يستولون على السكان ويبيعونهم في الأسواق، فبعدما سيطر المرابطون على الأوضاع في السودان لمدة عشر سنوات معتمدين على الجهاد و الرباطات والدعوة بدأت تفقد سيطرتها على الوضع وانبثقت الحزازات القبلية التي كانوا قد أضعفوها من قبل، فبدأت قبيلة مسوفة بالتمرد على رئاسة أي زعيم من لمتونة، ثم انتقل الأمر إلى جدالة ، ثم انتهزت دويلات السودان هذا الخلاف الناشب بين قبائل المرابطين لتعلن استقلالها، حيث استقلت مملكة غانة التي يذكر الإدريسي ملكها بأنه أصبح مستقلا ويخطب لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين الخليفة العباسي.

فكان لهذان العاملان دور كبير في تغيير الخريطة السياسية لمنطقة النيجر الأعلى والسنغال فظهرت عن تفكك مملكة غانة ممالك سودانية جديدة خرجت من رحم غانة، لكنها نافستها على زعامة السودان الغربي، الذي ظلت متربعة على عرشه لمدة أكثر من سبعة

قرون بدون منازع .فلقد كان القرن الخامس للهجرة 55 /م، هو قرن التحولات الكبرى بالنسبة لمنطقة النيجر والسنغال العلويين.

فبالإضافة إلى انتشار الإسلام في المنطقة، فانه شهد ميلاد قوى سياسية جديدة تمخضت عن سقوط غانة، حيث انتقلت السيادة من السوننكي إلى الصوصو، والمالنكي، والسونغاي والتكرور.

ثانيا: إمبراطورية مالي الإسلامية:

إن هذه المملكة تم تأسيسها من طرف المالنكي و هم مجموعة بشرية تنتمي إلى شعب الماندينغ، و ربما الفضل في تأسيس هذه المملكة يعود إلى عشيرة مالنكية تسمى عائلة كيتا، و هي عائلة من الصيادين البربين، و تعد عائلة كيتا من بين أقدم وأشهر العشائر المالنكية التي سكنت بلاد مندن(و هي الأرض التي ستتحول إلى مالي) و ترأستها مع عدد العشائر الأخرى مثل تراوري و كامارا و كوندي.

1.ظروف نشأة مملكة مالي:

كانت بلاد مندن في القديم تتكون من عشائر و إمارات مقسمة و متنافسة تابعة لإمبراطورية غانا، ولعل أهم إمارتين في بلاد مندن هي إمارتي **(دو)** و **(كيري)**، و لقد كانت إمارة دو تحكمها عائلة من الصيادين هي كيتا، التي تمكنت بفضل تفوقها في ميدان الصيد حيث كانوا أول من أدخل قوانين الصيد إلى بلاد مندن، كما برعوا في ميدان التنجيم وكشف الغيب، من السيطرة على بقية العشائر المندية و ضمها إليها و ابتلاعها إلى أن تمكنت في الخير من التوحيد بينها و بين كيرى و تحولت إلى مملكة واحدة.

لقد سميت المملكة الناتجة عن هذا الاتحاد بمملكة مالي أو ملْلِ، وكانت في البداية مجرد مملكة صغيرة و ضعيفة تابعة لإمبراطورية غانة، يحكمها زعماء الصيد من عائلة كيتا يلقبون بصمبو (*Simbo*) التي تعني زعيم الصيد، وبعدما ضعفت إمبراطورية غانة تعرضت للغزو المرابطي و دخل ملكها الإسلام، و بعدما انسحب المرابطون تاركين الحكم فيها بيد ملوك السوننكي الغانيين الذين كانوا ضعافا، فبدأت الأقاليم التابعة لسلطانها تنفصل عنها الواحدة تلو الأخرى، بدأت معها مساحة المملكة تتقلص انتهت بسقوط العاصمة كومبي

صالح في أيدي حكام قبائل الصوصو الوثنين، الذين كانوا من قبل خاضعين لغانة في أيام مجدها. يقول ابن خلدون في هذا الشأن: « ثم أن أهل غانية(يقصد غانة) ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم و استفحل أمر الملثمين المجاورين لهممن جانب الشمال مما يلي البربر كما ذكرناه، و عبروا على السودان واستباحوا حماهم و بلادهم و اقتصُّوا منهم الإتاوات والجزي، و حملوا كثيرا منهم على الإسلام فدانوا به. ثم اضمحل ملك أصحاب غانية وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أمم السودان و استعبدوهم و أصاروهم في جملتهم» .

و لقد استفحل أمر الصوصو وكونوا مملكة وثنية قوية على أنقاض إمبراطورية غانة فاستبدوا وبسطوا سيطرتهم على عدد من القبائل والشعوب المسلمة واستعبدوهم و من هذه الشعوب التي تعرضت لغزو الصوصو شعب (الملنكي) أو (مالي) الذي تصدى لهجمات وسيطرة ملوك الصوصو المستبدين. و كان هذا الشعب من بين أوائل الشعوب التي اعتنقت الإسلام في السودان الغربي، و هو ما جعل العداوة والكراهية تشتد بينهما، وتعد عائلة (كايتا) زعيمة شعب مالي صاحبة الفضل في التصدي لجبروت الصوصو وحاكمها القوي الذي يدعى (سمنغورو).

وبالرغم من اعتناق أسرة كايتا الإسلام في وقت مبكر (1050م/442 هـ)، إلا أن المصادر العربية بقيت تفتقد للمعلومات الدقيقة عن البدايات الأولى لإمارة مالي التي كونت فيما بعد إمبراطورية مالي.

فابن خلدون يذكر أن أول من أسلم من ملوك مالي و أدى فريضة الحج يدعى (برمندانه)، كما عرفت مملكة مالي عدة ملوك أشهرهم (موسى كايتا) الذي يعد المؤسس الحقيقي لعائلة كيتا الحاكمة، والذي كان مسلما وحج عدة مرات، و كان له ابن يدعى (ناري فامغان)، الذي حكم بين (1218م–1230م) والذي كان له إثنا عشر طفلا أصغرهم طفل اسمه سوندياتا.

وكان الملك(ناري فاماغان) في حرب مع إمارة الصوصو و أميرها الساحر الذي يدعي سمنغورو، و عند غزو هذا الأخير الإمارة مالي قتل جميع أبناء ناري فاماغان ولم ينجُ منهم سوى الطفل الصغير سوندياتا ، حيث احتقره سمنغورو هون من شأنه بسبب إعاقته. لقد كان سوندياتا معاقا ولا يقوى على الوقوف على رجليه، و لما تمكن من الوقوف على رجليه

و تعافى اضطر للهرب من اضطهاد الصوصو برفقة والدته و شقيقته وتوجه إلى إمارة في غانة تسمى ميما أين أُعجب به ملكها و أوكل إليه بعض مسؤوليات كبرى.

استغل سوندياتا المكانة التي حظي بها في منفاه عند ملك ميما ليُكَوِّن جيشا نظاميا ذاع صيته، فاستدعاه أهل إمارة مالي إليهم فلبى الدعوة، و كانت كل عشيرة قد كونت جيشها وانضمت إلى جيشه الذي كان أبرز القواد من أصدقاء الطفولة مثل (تيراماغان تراوري) وابن عمه (كاماديان). و لما جهَّز سوندياتا جيشه أعلن الحرب على زعيم الصوصو الملك سومنغورو كانتي قاتل أبيه وإخوته و منتهك حرمة وطنه، و كان ذلك في عام 1235م.

وكانت بدايات حرب سوندياتا مع خصمه سمنغورو فاشلة بسبب كثرة عدد جيش الصوصو و قوتهم، بالإضافة إلى أعمال السحر التي كان يتفنن فيها سمنغورو و أتباعه. لكن بعد ذلك استغل سوندياتا عدة ظروف لصالحه، منها التمرد الذي حدث في صفوف جيش سمنغورو إذ انفصل عنه ابن أخيه (فاكولي) بعدما انتزع منه سمنغورو زوجته. فقد انضم جيش فاكولي المتمرد إلى جيش سوندياتا وعبر نهر النيجر، وبدأت المعركة الحاسمة في كيرينا عام 1235م التي تحطَّم فيها جيش الصوصو واستولى سوندياتا على أرضهم ووسع حدود المملكة شمالا في الصحراء.

استغل سوندياتا انتصاره الباهر في معركة كيرينا لينتزع ملك الصوصو و ملك غانة الذي يليه إلى غاية المحيط الأطلسي. ثم توجه بفتوحاته نحو الشرق في فوتا جالون، و النيجر ومنطقة جني، فما إن دخلت سنة 1240م حتى كان سوندياتا يتربع على عرش إمبراطورية واسعة، و قام بعقد جمعية عامة في منطقة كوروكان – فوكا *(Kurukan -Fuga)*، واجتمع بكل الماندينغ والمناطق الخاضعة له، و منح جزء من مملكته لكل واحد من حلفائه، كما بايعه زعماء القبائل الخاضعة واعترفت به إمبراطورا، و بعدما أقام الإمبراطورية رأى سوندياتا غير العاصمة و نقلها من كنغابا إلى (نياني).

2. تطور وازدهار إمبراطورية مالي:

كانت سنة 1240م، بداية هذا العصر الذي اعتلى فيه (سوندياتا) عرش الإمبراطورية، كما بدأت في التوسع باتجاه الشرق حتى بلغت حدود بلاد البورنو، و باتجاه الشمال إلى غاية

بلاد البربر، أما جنوبا فقد أصبحت تحاذي بلاد الهمج الوثنين، كما بلغت من جهة الغرب المحيط الأطلسي.

وقد سجلت مالي عدة ملوك تعاقبوا على عرشها بدءا بسونديانا مؤسس الإمبراطورية، وكل منهم هيأ عهدا مميزا في تاريخ مالي.

أ .عهد سونديانا : بين 1240 و 1255م:

ويعد عهده دور التأسيس والانطلاق نحو العظمة، حيث قام سونديانا منذ توليه الحكم بتوجيه حملات عسكرية من العاصمة (نياني) باتجاه الغرب، فوسع حدود المملكة و ضم إليها منطقة حقول الذهب الكبرى في (بامبوك)، ثم واصل العمليات العسكرية حتي بلغت فتوحاته أسفل نهر السنغال ونهر غامبيا و التكرور، و بذلك أصبحت مالي أعظم و أقوى ممالك السودان الغربي.

وفي **الميدان العسكري** أنشأ سونديانا جيشا نظاميا قويا و مدربا، يقود كل فرقة منه قائد دائم يلقب بـ (كيلي بولون)، بينما يتولى قيادة الجيش العامة الملك شخصيا و يلقب بـ (كيلي تيجي). وكان الجيش ينقسم إلى : الخيالة المسلحة بالسيوف، و جيش المشاة المسلحة بالفؤوس والسهام والحراب الطويلة التي تسمى عندهم (طامبا)، والتي كانت تبعث الرعب في قلوب الأعداء.

و في **الميدان الزراعي** تقول الرواية الشعبية المحلية، أن سونديانا كان يولي عناية خاصة للتنمية الزراعية، وأنه هو الذي أدخل إلي مالي زراعة القطن و الأراشيد وغيرها من المزروعات، واهتم أيضا بتربية الحيوانات. و في الميدان السياسي فقد نظم أحوال الإمبراطورية بتشكيل جمعية عامة انبثق عنها نظام شبه فدرالي، و ولى على كل جزء من مملكته أحد حلفائه من الماندينغ.

و عموما فقد أبهر سونديانا الماليين و نسجت حول شخصيته أساطير عديدة مازالت تروى إلى غاية الوقت الحاضر. كما تنسب إليه عدة مواهب جعلت منه رجلا خارقا العادة، فهو مقاتل بارع و منظم كفء. و قد اختلفت المصادر التاريخية حول مدة حكم سونديانا، فمنهم من يقول خمس وعشرون سنة ، و منهم من يقول حكم مدة عشرين سنة. كما يذهب آخرون إلى أنه لم يحكم سوى خمس عشرة سنة، و بالتالي فوفاته تكون بين عامي

(1255م/635هـ)و(1265م/664هـ. وكانت وفاة سونديانا مفاجئة و مؤلمة، حيث تعرض لضربة سهم طائش من قوس ابن صديقه أثناء إقامة حفل للرماية على شرف سونديانا. و بذالك ينتهي عصر يبقى من أزهي عصور إمبراطورية مالي.

ب.عهد خلفاء سونديانا :

لقد خلف سونديانا بعد وفاته ابنه (منسا ولي) و مسنا تعني (السلطان) و ولي تعنى (علي) بلسانهم، والذي حكم بين عامي (1255– 1270م) وكان من أعظم ملوكهم، فقد أدى فريضة الحج في عهد الملك الظاهر بيبرس، كما شهدت الإمبراطورية في عهده اتجاه نجد نحو اللامركزية، بعدما أقطع الأراضي لقادته الكبار.

و بعد وفاة الملك منسا ولي عام 1270م خلفه (أبو بكر الأول) الذي كان يحمل لقب (مندي بوري) والتي تعنى انتماءه إلى سونديانا عن طريق أنثى، و لقد تميز أبو بكر الثاني بالضعف، و كثرت الخلافات حول العرش في عهده و تلاشت قبضته على الإمبراطورية وبمجرد وفاته واجه مالي مشكلة بشأن من يخلفه على العرش.

و في ظل هذه الفوضى ظهر رجل من القادة العسكريين، – و الذي كان من الموالي العبيد في السابق قبل أن يتحرر و هو(سكورة) الذي استولى على الحكم عام1285م، ونصب نفسه إمبراطورا جديدا على مالي و حكم بين 1285 م إلى 1300 م)، و لقد كان ملكا كفؤا، بارعا في الحرب وفي السياسة، واستطاع أن يعيد لمالي هيبتها، وعمل على توسيع رقعتها، حيث مدد حدودها شرقا على حساب مملكة سنغاي حديثة الظهور أنذالك، أما غربا فقد ضم منطقة (مسينا)، و أصبح ملك التكرور تابعا له. كما تميز سكورة بالتقوى وشهد له بالحج أيام الملك الناصر، واستطاع أن يعيد لمالي الأمن و الاستقرار، وقضى على الفوضى إلى أن توفي عام 1300م، حيث قُتِلَ عندما كان عائدا من الحج عند منطقة (تاجورة) قرب طرابلس.

بعد وفاة سكورة توالى على عرش مالي كل من الملك (قو) ثم من بعده ابنه (محمد بن قو)، إلى أن انتقل الملك بعد ذلك إلى (أبي بكر الثاني) و هو ابن أخ سونديانا الذي تولى عرش مالي أبو بكر الثاني في عام 1303م الذي اشتهر بطموحه الكبير الذي أدى به في سنة 1310م إلى تجهيز مائتي سفينة و أرسلها إلى المحيط الأطلسي من أجل الاستطلاع

والبحث عما يوجد وراء هذا البحر الذي كان يطلق عليه آنذاك اسم (بحر الظلمات)، و بعد فترة لم تعد سوى سفينة واحدة من السفن التي أرسلها، لذلك أرسل بعد ذلك ألفي سفينة أخرى، لكن هذه المرة لم تعد و لا سفينة.

وهكذا راح الملك أبو بكر الثاني ضحية طموحه مع السفن حيث اختفى مع السفن التي أرسلها و لم يعد. وبالتالي شهدت الإمبراطورية بعده عهدا جديدا عندما تولى الحكم فيها الملك المشهور (موسى كاكان) ابن أبي بكر الثاني.

ج. عهد موسى كاكان (منسا موسى) بين 1307 و 1329م :

كان منسا موسى بن أبي بكر رجلا صالحا و ملكا عظيما، أدى فريضة الحج عام 1323م فكان يعتق نفسا كل يوم. و يحكى عن هذا الملك لما خرج إلى الحج في أحد المواسم حمل معه قوة عظيمة، ومالا عظيما وجيشا عرمرما و معه ثمانون ألفا من الجند وخمسمائة من النسوة وثمانية آلاف وسبعمائة من العبيد، وقيل ستون آلف رجل وخمسمائة من العبيد.

ومن أعماله العسكرية أنه قام ببناء جيش قوي حتى أصبح لديه أقوى جيش في السودان الغربي كله، و بعد أن فتح مناطق واسعة في الغرب حتى المحيط الأطلسي توسع باتجاه الشرق إلى أن وصلت حدود مملكته مشارف بحيرة تشاد.

ولما كان يدرك الأهمية الحيوية التي كانت تلعبها مناطق التقاء الطرق التجارية من الناحية الاقتصادية والسياسية، فإن منسا موسى قام بالسيطرة على مملكة سنغاي عام 1325م، بحيث استغل أمير جيشه فرصة غياب ملك سنغاي (ديا أسيبا) عن المملكة لأداء فريضة الحج، فاستولى على عاصمتها جاو، و قدمها هدية لمنسا موسى لما عاد من الأراضي المقدسة، بعدما أخذ أميري سنغاي كرهينتين، فحوَّل منسا موسى اتجاه سيره من نياني (عاصمة مملكته) إلى جاو (كوكو) التي دخلها فاتحا أين استقبله أمراؤها و قدموا له فروض الطاعة والولاء.

و واصل منسا موسى فتوحاته حتى أصبحت الإمبراطورية تضم كل التجمعات البربرية الواقعة جنوب الصحراء، وامتدت سلطة ملكه جنوبا إلى غاية غابات غينيا، وشرقا حتى بلاد الهوسا. و من أعماله التوسعية العظيمة فتحه لمدينة تمبكتو، إذ يعد أول من دخلها فاتحا من

ملوك مالي وجعل خليفة له فيها، وابتنى بها دارا للسلطنة فسميت بـ (مع دك) ومعناها دار السلطان، كما بنا صومعة الجامع الكبير بها.

وقد اعتنى منسا موسى ببناء تمبكتو حتى أصبحت البلد الأم للتجارة في بلاد السودان في العصور الوسطى. كما أصبحت مالي في عهده محطة علمية بقدوم الفقهاء والأدباء والعلماء، و كان منسا موسى من أكبر الدعاة للإسلام أيضا، وقد توفي سنة 1332م.

و قد تركت وفاة منسا موسى فراغا رهيبا في مالي، حيث عمت الفوضى بمجرد تولي ابنه (مسنا مغا) الحكم وذلك بسبب افتقاده لصرامة أبيه و حزمه. وعرف بالتساهل في إدارة شؤون المملكة، وهو الشيء الذي مكن ابنا ملك جاو الرهينتين من الفرار، كما وقع في عهده نهب مدينة تمبكتو على يد الموسيين، و بعد وفاة منسا مغا، تولي العرش بعده (منسا سليمان) بن أبي بكر وهو أخو منسا موسى الذي اجتمع له ما كان أخوه قد افتتحه من بلاد السودان.

وقد استطاع منسا سليمان إصلاح شؤون البلد المالية، وأعاد الأمن إلى المملكة إذ لم يكن يسامح أحدا في أي جانب منه، كما واصل سيرة أخيه نشر الإسلام و بناء المساجد والجوامع و المنارات و حرص على صلاة الجماعة وإقامة الأذان. حكم منسا سليمان بين سنتي 1341 و1360م، أعاد خلالها مجد المملكة الذي ميز فترة حكم أخيه، و حافظ على العلاقات الدبلوماسية التي ربطها منسا موسى مع ملوك المغرب الأقصى.

وبوفاة منسا سليمان عام1360م دخلت المملكة في عهد جديد من الفوضى والصراع حول العرش الذي أدى إلى سقوطها.

3. سقوط إمبراطورية مالي :

إن بداية انحطاط إمبراطورية مالي كانت مع وفاة منسا سليمان، حيث خلفه مجموعة من الملوك ، إلى ان وصل العرش الى ماري جاطة هذا شر الناس حسب ابن خلدون ، حيث أساء السيرة و أفسد ملك مالي وأتلف ذخائر البلاد، بكثرة إسرافه وتبذيره إلى درجة أنه قام ببيع حجر من الذهب تزن عشرين قنطارا إلى تجار من مصر بأبخس الأثمان، رغم أن تلك الحجرة كانت تعد أنفس ذخائر ملوك السودان نظرا لندرة وجود مثلها، كما اشتهر بالكسل وعدم اكتراثه بشؤون البلاد إلى أن توفي عام 1374م، حيث أصابته في أخر أيامه علة

النوم والشعور بالنعاس، وهو مرض كثير ما كان يصيب أهل تلك البلاد، واستمر به المرض لمدة سنتين إلى أن توفي.

بعد ماري جاطة خلفه ابنه موسى الثاني الذي حاول أن يعيد الإمبراطورية إلى نصابها عن طريق تطوير الإدارة والعدالة. لكنه تغلب عليه وزيره (ماري جاطة) الذي كان يتصرف بشؤون الدولة كما يشاء، و تحكم في مقاليد الحكم، و بعد وفاة موسى الثاني، قامت نزاعات واغتيالات من أجل الاستحواذ على السلطة بين الأشقاء والأقارب أدت إلى انهيار المملكة، وفي هذه الفترة من الضعف والنزاعات الداخلية، ظهرت قوة كوكو (جاو) التي أخذت تضم ولايات مالي الواحدة تلو الأخرى إلى أراضيها حتي استولت على جني وهي إحدى المراكز التجارية الهامة لمالي.

إن الانحطاط بعد ذلك كان سريعا، فمنذ أواسط القرن الثامن للهجرة/14م بدأ ملوك الطوارق يشنون هجمات على تمبكتو أمام عجز أحفاد سندياتا على مقاومتهم، فسقطت تمبكتو تحت سيطرة الطوارق عام 838هـ/1435م. كما سقطت قبل ذلك العاصمة المالية نياني أمام هجمات ملوك سنغاي عام 802هـ/ 1400م.

و توالت غارات ملوك جاو على الأراضي المالية حتى بنوا إمبراطورية سنغاي على أنقاض إمبراطوريتهم إلى أن تم احتلالها كلية من طرف ملك الإسقيين و هو (الأسقيا داود) و ذلك عام 1055هـ/ 1645م. لهذا نستنتج بأن ضعف إمبراطورية مالي صنعته عدة عوامل وأسباب يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولا: ضعف شخصية الملوك الذين خلفوا منسا سليمان، و الذين أصبح همهم الوحيد هوا لتنافس والتنازع على العرش، فأدخلوا البلاد في دور الفتن و الفوضى و الاضطرابات.

ثانيا: هجوم قبائل الموسي الوثنيين على المملكة واستيلائهم على تمبكتو، التي تعد أهم قواعد المملكة من الناحية التجارية والثقافية، بالإضافة إلى فقدان مالي لبعض مناجمها المعدنية الهامة مثل مناجم النحاس تكدا ومناجم الذهب بغلام في الجنوب. و بالتالي فقدت إحدى عوامل قوة اقتصادها.

ثالثا: هناك سبب يركز عليه ابن بطوطة ألا و هو شيوع فساد الأخلاق في المجتمع المالي، وانغماسه في الملذات إذ انتقلت إلى كبار القوم من قضاة و فقهاء.

ثالثا: مملكة سنغاي الإسلامية

رغم أن هذه المملكة تعد أعرق وأقدم ممالك نهر النيجر على الإطلاق إلا أن دورها البارز في المنطقة لم يبدأ إلا في أواخر القرن الخامس للهجرة، وذلك بصعود فرع قبائل السنغاي الصيادين إلى النيجر الأعلى واعتناقهم الإسلام، فأصبحت مملكتهم المجاورة لإمبراطورية غانة والمعاصرة لها من الدول المؤثرة في المنطقة.

إن كلمة"سونغاي" تطلق على شعب وعلى منطقة في آن واحد ، فبلاد السونغاي تتكون أساسا من شمال منحنى النيجر. أي الضفة الشرقية لنهر النيجر انطلاقا من الحدود الحالية للنيجر، إلى غاية منطقة كوكيا عند انحناء نهر النيجر، مرورا بمنطقة داندي القديمة. أما عاصمتهم الأولى و مقر الأسرة الحاكمة الأولى فكانت مدينة كوكيا، قبل أن تنتقل إلى الشمال إلى مدينة كوكو أو"كاوكاو"التي كانت قبل ذلك مركزا تجاريا.

أما الشعب الذي تنسب إليه المملكة، فهو من الشعوب السودانية في الأصل، لكن امتزج مع عناصر أخرى من البربر، والعرب، واليهود، والفلاتة، بالإضافة إلى مجموعات أخرى من "الغورمانشي" و"الموسي"، وهم الصيادون البرّيون، والقادمون من الغابات الاستوائية، وكذا مجموعة "السوركو أو السورخو" القادمين من شرق النيجر وهم من الصيادين النهريين. والذين كانوا أول من استقر في منطقة "كوكيا"، وذلك قبل القرن السادس للميلاد، واستطاعوا بسط سيطرتهم على طول نهر النيجر الأعلى.

1.تأسيس المملكة:

وكان الظهور الأول لمملكة سنغاي يعود إلى القرون الميلادية الأولى، حيث يرى دولافوس بأن تأسيس مملكة سنغاي الأولى يرجع إلى القرن السابع للميلاد/ الأول للهجرة' وذلك عندما كانت جماعة من السكان وهم الصيادون النهريون المعروفون بالسوركو *(Sorko)* تستغل سهولة المواصلات النهرية بفضل قوارب الصيد، لفرض سيطرتهم السياسية على نظرائهم من السنغاي المزارعين المعروفين باسم "غابيبي *(Gabibi)*. حيث كانت

عشائر السوركو الصيادين تشن هجمات وغزوات على جيرانهم الفلاحين مستعملين قواربهم، إذ يخطفون وينهبون مخازن غلاتهم من الحبوب والخضر، ويستولون على متاعهم، ويقتلون كل من يعترض طريقهم، ثم يهربون. وذلك لأن السوركو لم يكونوا مزارعين، فيلجأون إلى هذه الطريقة لتوفير غذائهم. وبهذه الطريقة أقامت قبائل السوركو عدة مستوطنات على طول ضفة نهر النيجر، فارضين سيطرتهم على المزارعين، وتوغلوا شمالا حتى وصلوا إلى منطقة كوكيا أوكونكيا.

وفي هذه الأثناء وصلت جماعة من المهاجرين وهم من بربر لمطة، قادمين من طرابلس إلى كوكيا أين استقبلهم السونغاي المزارعين، ورحبوا بهم، وأكثر من ذلك منحوهم نسبا شريفا معتقدين بأنهم سوف يكونون حلفاء لهم ضد الغزاة من الصيادين السوركو، وكان زعيم اللمطيين هذا يدعى "زا الأيمن" أو "زا اليمن"، والذي حسب السعدي اشتق اسمه من اليمن، إذ قيل بأنه خرج هو وأخوه من أرض اليمن سائرين في أرض الله تعالى حتى انتهى بهما القدر إلى بلد كوكيا، وقد وصلاها وهم في بئس الحال حتى كادت صفة البشرية تزول عنهما من الوسخ والعري، حيث كانت أجسادهما عارية لا تكسوها إلا خرق الجلود. فلما وصلا إلى كوكيا سألهما أهل البلد عن المكان الذي جاءا منه فقال الأخ الأكبر جاء من اليمن، فأصبح أهل كوكيا يرددون "زا الأيمن"مغيّرين اللّفظ لتعسّر النطق به لديهم.

قام زا الأيمن وأصحابه بمحاربة السوركو الساكنين بجزيرة كوكيا، وطردوهم منها واستقروا بدلهم هناك، ثم قام السنغاي المزارعون بتنصيب زا الأيمن أو "ديا اليمن"(كما يسميه آخرون) ملكا عليهم، وأدّوا له يمين الطاعة كمكافأة له على تخليصه لهم من السوركو. بعد ذلك امتدت سلطته على كل السنغاي الساكنين بين جزيرة "بنتيا" إلى غاية كبيي *(Kebbi)*. وهناك رواية أسطورية يذكرها السعدي تتعلق بوصول زا اليمن إلى كوكيا وتنصيبه ملكا عليها ومفادها أن أهل كوكيا المزارعين كانوا وثنيين يعبدون وثنا هو عبارة عن شيطان تمثل لهم في صورة حوت يعيش في النهر، وكان يأمرهم وينهاهم فيأتمرون بأوامره، ويتجنبون نواهيه،

فلما رأى زا اليمن هذا الضلال منهم، قرر قتل هذا الحوت، فرماه بسهم من الحديد في يوم حضورهم إليه فقتله، وخلّصهم منه، فبايعوه وجعلوه ملكا، وكان مسلما. ورغم أن دولافوس يورد هذه الحادثة ويصدقها، ويذهب إلى أنها حدثت سنة 690 ميلادية، لكنه يرى في نفس الوقت بأن السعدي استعمل هذه الأسطورة كتعبير رمزي فقط للتعبير عن الظلم الذي كان يمارسه السوركو من نهب وسلب على المزارعين في كوكيا. لكنه يختلف مع السعدي حول الأصل اليمني لزا الأيمن ومرافقيه، بل ويختلف معه أيضا حول إسلامهم، ويرجح أنهم كانوا مسيحيين.

أما المصادر العربية فأنها لا تشير إلى أصل مؤسس إمارة كوكيا، إن كان عربيا أو بربريا، أو كان أسودا أم أبيضا، باستثناء المسعودي الذي يشير إلى أن الكوشيين من أبناء حام بن نوح الذين هاجروا باتجاه المغرب، وعاشوا وراء شرق إفريقيا في بلاد البجة، والنوبة، والزنج، تضمنت هجراتهم أيضا إلى أرض زغاوة وكاوكاو.

ورغم أن عبد الرحمان السعدي يعد أهم المصادر التي تحدثت عن بداية تاريخ مملكة سنغاي، وأغزرها من حيث المعلومات، حيث أخذ عنه جل المؤرخين الغربيين، إلا أنه لم يذكر شيئا عن تاريخ بداية حكم زا الأيمن في كوكيا، ولا عن اسمه الحقيقي قبل أن يلقبه أهل لمطة بهذا الاسم، حيث يقول: « ولا نعلم من ابتدأ منهم، ولا تاريخا لخروجه من اليمن، ولا لوصوله إليهم، ولا اسمه، وبقي اللفظ (أي لقب زا – اليمن) علما له وصار لقبا لكل من تولّى بعده من الملوك». لكن إذا ما علمنا بأن مدينة كوكو أو "جاو" التي تأسست بعد قدوم زا – الأيمن إلى كوكيا كانت موجودة في عهد اليعقوبي الذي ألف كتابه عام 258هـ /872 م، حيث يذكرها على أنها من أعظم ممالك السودان، وأجلها قدرا، وأعظمها أمرا وكل الممالك تعطي لملكها الطاعة.

كما نجدها مذكورة عند ياقوت الحموي في معجمه الذي نقل معلوماته عن المهلبي الذي كتب مؤلفه سنة 985 م، فان ذلك يقودنا إلى الاعتقاد بأن تأسيس أول مملكة لسنغاي بكوكيا من طرف زا الأيمن يكون قبل القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد.

ومهما يكن فان عدد مهم من السوركو لما طردوا من كوكيا، توجهوا خلال هذه الفترة إلى نحو نهر النيجر الأعلى لتأسيس مستوطنات جديدة، فقام أحد الصيادين السوركو يدعى "فارام بر" أو" فاران الأكبر" بتأسيس مدينة "جاو" **أو** "كوكو" .وهي عبارة عن مملكة صغيرة مستقلة، بينما قامت عشيرة أخرى من السوركوو هي عشيرة "فانو"بالتوجه منطقة بيرام والاستقرار بها. وكان خلفاء فاران بر في صراع دائم تقريبا مع الزعماء اللمطيين من خلفاء زا الأيمن في كوكيا، إذ أن أحد الأمراء السوركو وهو كوبي – تاكا (*Kobé-Taka*) قتل في إحدى المعارك التي جرت في الضفة اليمنى لنهر النيجر مع أمراء كوكيا، فحاول ابنه فاران– نابو(*Faran-Nabo*)أو نابونكي (*Nabonké*) الثأر له، لكنه بعدما حقق بعض الانتصارات على أمراء لمطة وفرض سيطرة ظرفية على شمال جنوب جاو، سرعان ما تم دحره وانهزم على يد خلفاء زا الأيمن من بربر لمطة، فترك لهم جاو التي غادرها.

2.المظاهر الحضارية لسنغاي:

كانت جاو أو كوكو تتمتع بخصائص استراتيجة، جغرافية، اقتصادية وعمرانية أهم بكثير من العاصمة كوكيا، حيث تحولت إلى مركز تجاري كبير منذ أواخر القرن التاسع ميلادي، فنجد في أسواقها ملح الصحراء، وسلع مصر وليبيا وإفريقية. كما كانت تربطها علاقات تجارية مع إمارة ورقلة التي تعد أقدم مركز تجاري يوجد على الحدود الشمالية للصحراء. وكانت كوكو محطة للقوافل التجارية المتجهة نحو شمال إفريقيا عبر منطقة كيدال بأدرار، أو القادمة من تادمكة، وتلك القادمة من مصر وشمال إفريقيا. ما أنها أضحت قبلة للدعاة والفقهاء أيضا.

وهذا الموقع الاستراتيجي والدور الاقتصادي الحيوي الذي أصبحت تحظى به مدينة جاو كان جديرا بأن يلفت انتباه ملوك كوكيا نحوها. لذا فبعدما كانت كوكيا عاصمتهم الأولى، وقاعدة حكمهم لمدة ثلاثة قرون، نقلوا عاصمتهم إلى جاو التي ستضل عاصمة مملكة سنغاي، وكذا الإمبراطورية السنغائية التي قامت بعد ذلك على أنقاض إمبراطورية مالي. وبانتقال السنغاي إلى عاصمتهم الجديدة جاو أو كوكو تبدأ المرحلة الهامة من تاريخهم، وذلك مع أواخر القرن العاشر للميلاد .

إن هذه المرحلة تعد أكثر المراحل شهرة بالنسبة لتاريخ مملكة سونغاي، حيث تكلمت المصادر العربية عن ازدهار المملكة وعاصمتها الجديدة المعروفة بجاو (أو كاوكاو أو كوكو)، على خلاف المرحلة السابقة أثناء وجودها في كوكيا. فنجد مؤرخي الرابع والخامس الهجريين قد زوّدونا بمعلومات قيمة حول كوكو والدور الذي أصبحت تضطلع به، ليس بالنسبة لمملكة سنغاي فقط، وإنما بالنسبة للسودان الغربي ككل. فاليعقوبي المتوفى سنة 905 م، يقول عنها أنها كانت في عصره من أعظم ممالك السودان وأجلها قدرا وأعظمها أمرا. وكانت الممالك تعطي لملكها الطاعة، وهناك عدة ملوك تابعين لملك كوكو ويعطونه الطاعة ويقرون له بالرئاسة، رغم أنهم كانوا ملوكا لبلدانهم، ومن هؤلاء يوجد ملك المرو، ملك مردية، ملك الهربر، ملك صنهاجة، ملك تذكير، ملك الزيانير، ملك أرور، وملك بقاروت. وكلهم ينتسبون إلى مملكة كوكو.

أما ياقوت الحموي فرغم انه توفي عام 1229م إلاّ أنه نقل معلوماته حول كوكو وملوكها عن المهلبي الذي كتب عنها عام 985 م، بحيث يقول بأنها كانت بها مدينتان واحدة شرقي النيل(النيجر) وتسمى سرناه بها أسواق ومتاجر و يقصدها الناس من كل البلدان. ومدينة أخرى غربي النيل خاصة بإقامته(أي الملك) هو وثقاته، وبها مسجد يصلي فيه ومصلى الجماعة. وله فيها أيضا قصرا لا يسكنه معه أحد.

ومن مؤرخي القرن الرابع للهجرة الذين يذكرونها أيضا نجد ابن حوقل، الذي يذكر ملك سنغاي باسم "ملك كوغة"، ويقول عنه بأنه كان يقيم علاقة طيبة مع ملك أودغست الذي كان في ذلك الوقت تابعا لإمبراطورية غانة، ويعطيه الهدايا رغم أن ملك كوغة كان أقل مالا وغنى من ملك أودغست. ولكن ابن حوقل يرجع ذلك إلى حاجة ملك كوغة إلى الملح الذي يصل إليهم من أودغست. ذلك أن أودغست كانت تمثل مركزا تجاريا، ونقطة عبور مهمة للقوافل القادمة من بلاد المسلمين في الشمال إلى بلاد السودان. وبالتالي كانت كل السلع الأساسية المتجهة إلى الأسواق السودانية كانت تمر عبرها، ومن هذه السلع الملح الذي لم يكن يستغني عنه السونغاي ولا قوام لهم إلا به.

أما البكري الذي عاش في أواسط القرن الخامس للهجرة، فانه يذكر كوغة (جاو) ويصف لنا حركتها التجارية ، وأهم السلع التي كانت تتدفق على أسواقها من الملح والودع والنحاس، كما يذكر غناها بالذهب من خلال مناجم التبر التي تحيط بها، بل ويصفها بأكثر بلاد السودان ذهبا.

إن هذه الشهادات التي قدمتها لنا المصادر العربية، تبين بأن مملكة سنغاي قد عرفت تطورا وازدهارا كبيرين منذ نقل عاصمتها إلى جاو، واستفادت كثيرا من هذه المدينة التجارية التي جعلتها تلعب دورا اقتصاديا وسياسيا لا يمكن تجاوزهما في منطقة النيجر والسنغال العلويين خلال الفترة الممتدة بين القرنين التاسع والعاشر الميلاديين.

وعرفت مملكة سنغاي خلال هذه الفترة ملوكا أقوياء حافظوا على قوة هذه المملكة وازدهارها، وساهموا في تدعيم ذلك الدور الذي أنيط بمملكتهم. وكان هؤلاء الملوك من نفس العائلة التي أسست إمارة سنغاي الأولى في كوكيا، ألا وهي عائلة زا الأيمن. ولقد ذكر السعدي في كتابه ثلاثين ملكا حكموا سنغاي، وكلهم ينتمون إلى نفس العائلة. ويبدأ اسمهم بحرف "الزاي "بدء من زا الأيمن إلى غاية الملك "زا بدا "الذي يعد آخر ملك من هذه العائلة، قبل أن ينتقل الحكم إلى عائلة الإسقيين، وقد ساد منهم أربعة عشر ملكا كلهم قبل الإسلام.

وهذا يؤكد ما ذهب إليه دولافوس من أن أول ملوك كوكيا زا الأيمن، و مرافقيه لم يكونوا مسلمين. ولكننا في نفس الوقت لا نملك ما يثبت الكلام الذي ذهب إليه دولافوس و هو أنهم كانوا مسيحيين.

وحسب السعدي دائما فإن أول ملك أسلم منهم كان "زا كوسي"، والذي يقال له في كلامهم "مسلم دم" أي أسلم طوعا، وبإرادته دون إكراه، وكان ذلك سنة 1009م، أي أن إسلامهم كان بالطرق السلمية، وبعيدة عن الحرب والإكراه، وربما يكون ملوك كوكو قد تأثروا بالتجار المسلمين الذين كانت عاصمتهم تعج بهم، وفيهم الدعاة والفقهاء. لكن المصادر العربية المعاصرة لهؤلاء الملوك الأوائل من المسلمين تخبرنا بأن الإسلام لم يكن ديانة كل شعب السنغاي، حيث كان سكان العاصمة جاو مسلمين، ولهم مسجدا يصلون فيه جماعة. بينما ما حواليها من الممالك والمدن فإنهم كانوا يزالون وثنيين، لكن يبقى أغلبية الشعب مسلما.

يذكر البكري عاصمة سنغاي كوغة و يقول بأنها تقع على بعد مسيرة خمسة عشر مرحلة من غانة و أن أهلها مسلمون و حول هذه المدينة يوجد المشركين، و أكثر ما يتجهز إليها الملح الذي يستعمل أيضا كعملة، والودع و النحاس، والفربيون(الحلبة) انفق شيء عندهم، و حواليها من معادن التبر كثيرة و هي أكثر بلاد السودان ذهبا. كما يقول عن أهلها بأنهم يلقبون بالبزركانيين، و أن عاصمتهم تنقسم إلى قسمين واحدة يسكنها الملك و اخرى يسكنها المسلمون. و أن ملكهم رغم إسلامه الا انه كان يسكن مدينة الكفار، و زيهم كزي السودان من الملاحف و ثياب الجلود و غير ذلك حسب قدرة كل إنسان منهم، و هم يعبدون الدكاكير(الأصنام) و كانوا عندما يجلس الملك يضربون الطبل و ترقص النساء بشعورهن المسترسلة، و انه لم يكن يسمح لأي احد ان يتحرك في المدينة حتى يفرغ الملك من أكل طعامه ثم يلقي ما بقي منه في النهر فيصيحون ليعلم الناس انه فرغ من طعامه. وكان الملك الجديد عندما يولى العرش يجلب له خاتم و سيف و مصحف القرآن يزعمون

بأنه مبعوث له من عند أمير المؤمنين(اي الخليفة العباسي). و يقول البكري بان ملك كوكو كان مسلما و لا ينصبون ملكا إلا من المسلمين.

3.فترة حكم سني علي، أو علي كولن، أو بر الكبير(1464 . 1492م)

خلال سنة 1325م كانت إمبراطورية و مالي قد بلغت اوج قوتها، و عندما قام الملك منسا موسى بحجته الشهيرة و كان عائدا الى مالي مر بسنغاي وقام قائد جيشه سامغنجا باحتلال عاصمة سنغاي جاو(كوكو) واخذ ابني الملك زا أسيباي و هما **(سليمان . نر)** و **(على . كولن)** كرهينتين عنده، و مع مرور الوقتو لما كبر الولدان كان علي كولن يقوم بجولات خارج أسوار مدينة نياني بمالي خفية، و بدأ شيئا فشيئا يحاول ان يتعرف على الطريق المؤدي الى جاو ، ثم بدأ يجهز نفسه و اعد جيشا بعيدا عن أعين ملوك مالي، ثم اخبر أخاه سليمان نر بالخطة فانظم اليه في مخططه. و لما حان الوقت المناسب هربا الى سنغاي و تتبعهما سلطنة مالي بجيشه و تقاتل الجيشان في الطريق فتمكن علي كولن وأخاه من الوصول إلى جاو و دخلاها منتصرين، فنصب علي كولن نفسه ملكا على سنغاي وقطع صلته بملك مالي و لقب نفسه بسن علي أو بر علي.

بعد سيطرة علي كولن على عرش سنغاي غير مصير المملكة حيث جند جيشا مدربا ومنظما، و أعد أسطولا صغيرا على نهر النيجر بقيادة هيكوي(وزير النهر) و بدأ فتوحاته في كل الاتجاهات و مارس في هجماته كل أنواع العنف و القتل و الترهيب و نكّل بخصومه، وحيكت حوله الروايات الأسطورية حيث قيل أنه كان ساحرا كبيرا ،كما لقّب بدعالي(أي علي العليّ).

و اهتم بالجهة الغربية ذات الثروات الكبيرة من الذهب، فغزا مسينا،و فتك بالفلاتة، و غزا تنبكتو، و هاجم الطوارق و طردهم الى الشمال من منطقة الساحل،كما غزا الموشي و الدوجون في الجنوب.

و عرف عن سني علي من طرف المؤرخين و علماء السودان بأنه كان طاغية فاسق لما ارتكبه من اعتداءات في حق العلماء والصالحين، وخاصة عندما دخل تنبكتو عام 1468م التي نهبها و حرقها وقتل فيها خلق كثير،والتي اعتبرها السعدي اشد فتكا من تلك الانتهاكات التي قام بها الموسي الوثنيين عندما غزوا تنبكتو عام 1369م و التي قام بها السعديين عام 15991 م.

ويعود سبب فتكه بالعلماء الى تربيته و نشأته فهو تربى في بلدة تسمى ألفارو(*Alfarou*) التي كان أهلها مسلمون إسلاما سطحيا، و كانت متجذرة فيهم التقاليد و الممارسات الوثنية فكانوا يتضايقون جدا من انتقادات و توجيهات و إرشادات و مواعظ العلماء و الفقهاء لهم. كما أن علماء تنبكتو كانوا قد انظموا الى زعيم الطوارق **العقيل الملاول** في حربه ضد سني علي واستنجدوا به، و هو ما جعل هذا الأخير ينتقم منهم وينصب نفسه مدافعا عن الثقافة السنغائية التقليدية ضد الموجة الجديدة لعلماء تنبكتو المصلحين.

توفي سني علي عام 1492م و خلفه ابنه **أبو بكر داعو** الملقب سني باري و الذي يقال بأنه رفض اعتناق الإسلام الصحيح فثار ضده قائد جيشه و هو محمد توري الذي يلقبه السعدي بمحمد الأسعد الأرشد و هو رجل مصلح متمسك بالدين الصحيح.
و لما تفوق عليه و قتله أصبح محمد توري الملك الجديد لإمبراطورية سنغاي و تلقب بأسكيا محمد الأول و بالتالي بدأ عهد الأسقيين.

4.مملكة سنغاي في عهد الإسقيين:

أ. في عهد الأسقيا محمد الكبير:

كان الأسقيا محمد من أصل سوننكي من عشيرة توري المنحدرة من سلالة المرابطين، ورغم أنه كان أميا إلا أنه كان مسلما ورعا، و رجلا متّزنا و معتدلا و سياسيا بعيد النظر.

و كان أول عمل قام به لما اعتلى العرش هو أدائه لفريضة الحج و اصطحب معه 800 فارس و عدد كبير من علماء الدين، و حمل معه مالا كثيرا، فنزل بالقاهرة و زار الشيخ جلال الدين السيوطي (شيخ الأزهر) الذي نصحه بشؤون الحكم، و اشترى بمكة بستانا أوقفه للحجاج السودانيين. كما حصل من شريف مكة على لقب خليفة السودان و بالتالي تحصل على الشرعية الدينية لحكمه وعلى اعتراف حكام العالم لسلطانه.

بعدها توجه لتنظيم الدولة، حيث قام بتكوين جيشا نظاميا بعدما كانت في السابق الحرب مفروضة على جميع السكان من خلال التعبئة التامة، لهذا عمل على الأسقيا محمد على تشكيل جيش محترف، كما عمل على تقسيم المملكة إلى ولايات على رأس كل واحدة منها حاكم يمثل السلطان، حيث كان يمنحهم لقب فاري فمثلا حاكم غورما يلقب بغورما فاري، حاكم دندي يلقب بداندي فاري، وهكذا..، كما نصّب مسؤول القوارب النهرية ويسمى هي كوي*(Hi-Koi)* الذي كان من شعب السوركو، وعيَّن مسؤولا عن مراقبة جمع الضرائب سمي فاري منديو(*Fari-Mandio*)، كما عين على رأس الديانات المحلية الوثنية مسؤولا يلقب بكوري فاريما(*Koré-Farima*)، و مسؤول الغابات يلقب بساو فاريما(*Sao-Farima*) الذي يراقب من يقطع أشجار الغابات، و يجمع الأتوات على الطرائد المصطادة، بالإضافة إلى مسؤول في الصيد النهري ويلقب بكوي – كوي، وعلى رأس كل مدينة كبيرة عيَّن مسؤولا إداريا لُقِّب بكوي(*Koi*) ، مثل تنبكتو–كوي، جني –كوي و هكذا.

بعد ذلك تفرّغ لتوسيع مملكته فأخضع مسينا ودارا، و بلاد الموشي بعدما رفضوا الدخول في الإسلام، و غزا أغاديس و بلاد الآير في الصحراء، أما حني فخضعت له طواعية بدون حرب، و في سنة 1513م، أما جني فخضعت له طواعية بدون حرب، و في سنة 1500م غزا بلاد التكرور و استولى على مناجم الذهب في غالام ، ثم توجه إلى بلاد الهوسا و غزا كاتسينا ، كما حارب مالي و انتصر عليها في الغرب.

كما نظَّم القضاء و نصَّب القضاة في كل المدن الإسلامية و حمل القضاة سرعة البت في القضايا. أما في المجال الاقتصادي فقد شجَّع التجارة و نشر عدد كبير من الشرطة لمراقبة الأسواق، واجتهد في مراقبة أدوات القياس، وشجع التعليم وأغدق على العلماء بالعطايا و المعاشات، وكان يحترمهم و يجلهم.

لقد أصيب الأسقيا محمد توري بالعمى في آخر حياته و تغلب عليه أبناؤه، حيث كان لديه ثلاثون ولدا، وكان الأسقيا محمد يعتمد كليا على رجل ثقة يسمى علي فولن لكن ابنه موسى كان يحاول أن يتخلص منه من أجل الاستيلاء على العرش و الإطاحة به.

و لما خشي علي فولن من أن يقتل من طرف سيديا (ميليشيات) موسى هرب و لجأ إلى غورما التي كان يحي ابن الأسقيا محمد هو الذي يحكمها، فاستغل موسى غياب علي فولن و أخيه يحي غنة مدينة غاو لينفذ مخططه فأطاح بحكم والده و استولى على عش سونغاي سنة 1528م. فلجأ الأسقيا المخلوع إلى كوكيا بغرض إنشاء مملكة موازية مستقلة عن سونغاي لكن موسى كان مدعما بإخوته داود و إسماعيل و ابن أخيه عمر دياكو ففشلت حركة الأسقيا محمد و أصبح ابنه موسى ملكا جديدا على سونغاي، و وضع هو في الإقامة الجبرية .

ب. مملكة سنغاي بعد الأسقيا محمد الكبير:

لقد كان الأسقيا موسى رجلا ظالما وطاغية، حيث قتل الكثير من الناس وعاش الناس في عهده رعبا كبيرا فثار ضده إخوته و قتلوه ، بعدها دخلت البلاد في دوامة من الصراعات بين الإخوة وأبناء العمومة حول العرش، ولكن بوصول السلطة إلى الأسقيا إسماعيل حاول لم الشمل و أعاد والده الأسقيا محمد من إقامته الجبرية و أعاد إخوته إلى قصره و أحيا الجهاد ضد الوثنيين، كما كان أخوه من بعده الأسقيا إسحاق رجلا تقيا صالحا ذا عقل وفطنة و دهاء وحارب الوثنيين و بلغت الدولة في عهده ذروتها من التقدم وحققت نهضة اقتصادية و فكرية عظيمة، كما أكرم العلماء و أغدق عليهم بالعطايا و في عهده اندلعت أزمة مناجم الملح بتغازة مع المملكة السعدية بالمغرب، حيث كان السلطان المغربي يطالب بها و رغم اتفاق الطرفان على حل بشأنها يقضي باعتراف المغرب بملكية سونغاي للمنجم فإن القضية انفجرت مرة أخرى و انتهت بالاحتلال المغربي لهذه المناجم ثم احتلال جاو سنة 1588م. وبالتالي انتهى عهد مملكة سنغاي.